الشيخ مبروك

قصة جديدة

بقلم سميرة عزام

أطل عليّ جاري بوجهه العتيق وقال : « أليس عجيباً ان لا نرى الشيخ مبروك لأيام ؟»

قلت وانا لم ارفع يدي عن شعر الزبون الذي اعملت فيه مقصي :

— لقد افتقدتـــه انا الآخر ، ولا ادري ماذا ألمّ به .. لعله مريض .

— عجيب ، ظننت الشيخ مبروك لا يمرض .

— ولم ؟ أليس ببشر مثلي ومثلك ؟

— بلى ولكن ..

— ولكن ماذا ؟

ولم يجد جاري ما يقوله ، فاستـــدار وتركني افكر في الشيخ مبروك الذي لم يزرنا مؤخراً وهو الذي لم يعـودنا على التخلف قط ، اذ دأب على المرور بنا يومياً منـذ عشرة اعوام ولم يعفنا إلا في ايام العطل والاعياد .

كان الشيخ مبروك شخصية فيها الكثير من وجوه الغرابة.. وكان عهدي به منذ عملت صبياً في دكان الحلاق التي آل اليّ امرها فيما بعد كما هي العادة، وكان يلذ لي كثيراً ان اتأمل قامته الفارعة ووجهه القسيم الملتحي وتلك المسبحة الطويلة السوداء ، فتروح عيناي تنتقلان من عمتـه الحائلة اللون الى جلبابه القديم الذي كان ابداً نظيفاً ،الى خفين ينتعلهما ويمشي بهما مشيته الخفيفة.

ولم اكن اعلم في بادىء الامر سر زياراته اليومية المنتظمة، فقد كان لا يجلس ولا يتباطأ ،يدخل فيلقي السلام بصوت خفيض ثم تمتد اليه يد معلمي بقرش واحد يلقيه هذا بجيبـه ثم ينصرف عنا الى جارنا ، وبعد الى صف طويل من حوانيت الحلاقـين والمنجّدين وباعة الملابس القديمة يجمع منهم القروش . وحرت في ماهية الشيخ مبروك واستثار فضولي : أهو شحاذ ؟ كلا ، ليست له هيئة الشحاذين ولا نفسيتهم ولا تكلفهم لما يستـــدر العطف ويحرك الحسنة .. ففيه نظافة دائمة وفيه كبرياء تلجم لسانه فلا يفوه بكلمة الشكر إلا بصوت خفيض .

ولم يدعونه (الشيخ)؟. ما اكثر المتمشيخين! ولكنه ايضاً لا يشبههم . عهدي بهؤلاء يجلسون فيتلون من آيات الكتاب الكريم ما تيسر منها . ثم يشربون من القهوة قدحاً او اثنين ويقبضون بعدها ما تيسر ايضـاً وهم يدعون للمعطي بان يرتد له قرشه قروشاً و ن يوسـع الله له في الرزق لتنبسط كفه بالعطايا .. اجل ليس الشيـــخ مبروك رغم العمة واللقب واحداً من هـؤلاء .. وهو في شكله العمومي اشد ما يكون شبهـاً بالمغاربة الذين يتعاطون حرفة فتح البخت واشياء اخرى الى جانبها . إذن لِمَ يواظب الرجل على هذه الزيارات اليومية ولِمَ يمنحه معلمي وجيرانه قروشهم راضين ؟

واستحييت ان اسأل معلمي ، وكان الاولى ان ادرك ان الثرثرة من مستلزمات الصنعة . فلا استحي ولا يقف على لساني السؤال ، ولكنني تشجعت يوماً وسألت فقال معلمي : « والله يا ابني لا ادري ما اقول ، نحن نتبارك بالرجل ،ففي طلعتـه يمن وبركة ينزلان على المحل . لقد اسميناه مبروكاً فضاع اسمـــه القديم وقد يكون محمداً او علياً او خميساً ولكن ما علينا . مبروك هو الاسم الذي اصطلحنا على مناداته به . اما الشيـخ فهو من متممات الجبة والعمة والمسبحة .

هو لا يطلب قط ولا يثقل علينا ، فاذا اعطيناه اخذ وإذا امسكنا انصرف غير لائم .. ان في وجهه قناعة غريبة، فكأن الدنيا لديه ليست باكثر من لقمة تقيم الاود وصحن مسجـــد يأوي اليه إذا جن الليل .

وسألته وقد شاقني امر هـــذا الانسان : « اما من زوجٍ له وابناء ؟ »

وقهقه معلمي قهقهة اهتزت لها عروق رقبته وقال « زوجة ؟ زوجة للشيخ مبروك ؟و هو الذي لا تـُذكر امامـه النساء إلا ويطرق في إعراض . لا يا ابني ، هـذا رجل زهد في دنيـاه ليشتري آخرته . »

وسكت معلمي حين دخل زبون رمى بنفسه على الكرسي الحشن واسلم رأسه للمقص وفتح اذنين كبيرتين لحكايات معلمي.

وظللت اعمل في دكان الحلاق او (صالون السرور والانشراح) كما كان صاحبه يسميه سنين عديدة، ولا اذكر ان وجه الشيخ مبروك غاب عنا خلالها يوماً واحداً الا في ايام التعطيل .

وكنت اترقب مجيئه بشوق ، يدخل فيحيي ويقبض وينصرف لا يلوي على شيء .. كدأبه منذ دخلت « الكار » صغيراً الى ان صار اليّ امر (صالون السرور والانشراح) بعد ان مات معلمي.

اذن فليس بالكثير لو افتقدت الشيخ مبروك وعراني قلق خفيف لانقطاعه اسبوعين بكاملهما . ولكنه جاء بعدهما . جاء وكان الوقت عصراً فحيّا واقترب مني فمددت اليه يدي بالقرش ولكنه ابتسم ابتسامة حائرة قلما رأيتها على وجهه وقال « لا لم اجيء لهذا .. ولا قروش بعد اليوم »

ولم افهم ما يعني اذ لم اسمعه قبلايتفوه بهذا القدرمن الكلام دفعة واحدة فقلت « لم نرك لايام .. » فاجاب — كنت مشغولاً » ثم غير نغمة صوته وقال : الا تحلق لي لحيتي ؟

قلت — احلق لحيتك ؟

— اجل لحيتي ، انهم يريدونني حليقاً كالافندية . وضحك ضحكة خلتها تخرج من بطنه .

— من هم ؟ عمن تتكلم ؟

— انها امراة سأتزوجها .

— انت تتزوج يا شيخ مبروك ؟ وهل تفعلها ؟

وعاد يبتسم ابتسامة كشفت عن صفين من الاسنان البيضاء وقال — مكتوب .

ووقفت احدق الى وجهه لم اصدق عيني ولا اذني ، وخلت الرجل يهذي . قال وهو يستحثني :

— انت لا تصدقني يا حسن .. لعلك تظن بي الجنون .

قلت — تماماً ، اتمزح يا شيخ .؟

— لا والله بل سأتزوج .

— ممن ؟

— من واحدة لا تعرفها ، اما انا فمعرفتي بها قديمة ، كانت فتاة صغيرة ، وكنت احبها ، ولما شئت ان اتزوجها أبى عليّ ابوها ذلك وأعطاها لابن اخيه ، وكان رفضه صدمة لم احتملها فهمت على وجهي كالصعاليك . شعرت بانني رجل لا صلة له بالناس او الحياة فعشت كما عرفتني .

وسكت مبروك قليلاً وبلل شفتيه بلسانه وقال :

وخلتني نسيتها ومات حبها في قلبي إلى ان رأيتها قبل شهر من الزمن بعد ان عرفت ان زوجها قد مات وترك لها طفلة ، وشعرت يا حسن بانني لا زلت احبها ذلك الحب الذي لم يعش سواه في نفسي ، فما رفعت قدمي من العتبة قبل ان اعرض عليها الزواج ..

وقبلت بالطبع إذ انها ستجد في حمايتي ما يعصمها عن التشرد ، ولا بد لي من عمل الآن .. سأكون صاحب عيال .

هذه هي الحكاية يا صاحبي .. مالك ألا تقص لي لحيتي ؟ كيف اعمل بها؟

قلت وانا بين مكذب عيني واذني ومصدقها : غريب . ولم أزد بل حملت الموسى وراحت لحية الشيخ مبروك تتناثر امامي على الأرض سوداء كريش الغراب ، وشعرت وانا ازيل عنه لحيته بانني امسح عنه الاسطورة .. اسطورة البركة .

سميره عزام

مطبعة دار الكتب - بيروت - بناية اللعازارية
للطباعة والتجليد المتقن
☎ اللعازارية ٩٩ .

تساؤل ...

مهداة الى
بلد الحريات الزائفة

« راح طفل زنجي يستصرخ امه ، أكلت الغيلان البيض أباه ... »

اماه ، لماذا ولدتني بهذا اللون المهين ؟
بهذا اللون الزفتي اللعين ؟
اللون الذي ترصف منه شوارع المدينة ؟
لقد هشمت قارورة احلامي البيضاء يا أماه!
لماذا ابتلعت حبة سوداء يا اماه !؟
هل الطبيب أشار عليك بابتلاعها ؟
هذا المخلوق الذي لا وجود له في عالمي ،
إلا في القاموس ، كما قلت لي ..
لكن يقال انه يعالج المرضى البيض ..
لماذا ، يا اماه ، حين فار جسمي بالسخونة ،
بالأمس لم يزرني ؟ هيا قولي لي لماذا ؟
حتى ولم استطع ان احلم به ..
أكان يا أماه ، يخاف ظلمة وجهي ؟
أيخشى على نفسه ان يعلق به لوني ؟
ولا أحد بعدُ بوسعه ان يقرأ
اسمه في القاموس ، إذ يمر به ..
فيموت ويندثر كلفظة قديمة !
أليس كان بمقدورك يا أماه ،
بعد الذي فعلت ، ان تصبغي
بشرتي بدهان ابيض كحليب عنزتي ؟
حتى لا تسخر مني هذه البهائم البيض !
أماه ، أماه ، هل ولدتني في سرداب مظلم؟
فامتصت بشرتي الظلمة القاتمة الملعونة ؟
هل خفت علي من النور لئلا يلامس جلدي!
فيصطبغ بكساء ثلجي تصنع منه اردية الموت
تلك الأكفان المخيفة المقرقعة البيض
أتروعك حقاً إلى هذا الحد ؟
أماه ، إن الصبي ترومان قال لي ،
لما اقتربت منه لألمس بدلته الزرقاء ،
لأن قلبي هف لها ، لأن تكون لي مثلها :
حذار ان تفعل ، اليك عني ايها العبد القبيح ،
حذار ان تدنسني ! وبصق في وجهي !
احقاً اني قبيح يا أماه ؟
هيا قولي لي .. قولي
وعندما قلت له : هل آذيتك يا اخي ؟
ماذا يغضبك مني يا أخي ؟
بربك ماذا ؟
إني انساني المولد !
ألستُ مثلك ؟
ألست افضل من كلبك الأسود ؟
الكلب الذي تحتضنه امك ؟
فاذا به يهيج وكالبغل يرفسني ويلطمني !
أماه ، أكانت كلماتي قاسية معه ؟
إذن لماذا اعتبر كلامي إهانة له ؟
أماه ، وعندما مر أبي ،
ورآني أعرج وأبكي ارتعش غضباً ،
لانه ما كاد يشرع بتعنيف الصبي ، ترومان
الغضبان مني ، حتى احتاطته البهائم البيض ،
فلم أعثر من بينهم على أبي
وكأنه كان ليلاً أطبق عليه نهاران ؟!

* *

وهنا رفعت الأم الصامتة وليدها
الى صدرها تخنقها النشيج الكظيم !
ومن خلل الدموع أطلت عيناها
الكسيرتان إلى إله البيض ،
الهارب من وحشية البيض إلى السماء !

بغداد **فالح العسكري**